تقديم

نشأت فكرة هذا الكتاب للمرة الأولى فى صيف سنة ٢٠٠٢م فى أعقاب ملاحظات عنصرية صفيقة أطلقها رئيس الوزراء السابق إيهود باراك من حزب العمل الإسرائيلى، عندما زعم أن «الكذب» جزء جوهرى فى الثقافة العربية (آرورى ٢٠٠٣ ـ ١٧٣). انعكس هذا الانفجار العاطفى غير العادى بشكل غاية فى السوء على باراك ـ وربما يشى بشىء مماثل عن العملية النفسية التى تسمى «الإسقاط»، ألم يكن يسقط على عدوه كشفًا عن أفكاره السياسية الخاصة ومعتقداته المدفونة فى أعماق نظامه العقلى؟ المؤكد أن الفلسطينيين يرون من خلال تجربتهم أن الصهيونية عبارة عن صرح من الأكاذيب.

خُذ مثالاً بسيطًا. عندما كان باراك رئيسًا للوزراء، كان عدد المستوطنات اليهودية غير القانونية فى الضفة الغربية قد تزايد، على الرغم من التزامه المفترض بـ «عملية السلام». والسياسيون الصهاينة أمثال باراك يدثرون ادعاءاتهم حول الضفة الغربية بعباءة الأسطورة الدينية، ويستشهدون بحكايات الكتاب المقدس عن «أرض إسرائيل القديمة». وعلى أية حال، فإنه بالنسبة للفلسطينيين الذين عاشت عائلاتهم على هذه الأرض الفلسطينية وزرعوها على مدى الأجيال، تبدو هذه الأسطورة كذبة ضخمة، لتبرير سرقة أرضهم.

ما الذى يميز كذبة عن أسطورة وفقًا لـ «Concise Oxford Dictionary»؟ الكذبة: هى «بيان زائف عمدًا»، «خداع متعمد»، على حين أن الأسطورة مفهوم ذائع «الانتشار ولكنه مزيف»، دون أن يكون فيه خداع متعمد بالضرورة. ولكن إذا جربت مجموعة من الناس الظلم والاضطهاد نتيجة لأسطورة، للزيف، فإن المؤكد أنه لا يهم بالنسبة لهم ما إذا كان الزيف خداعًا عمدًا فى أصله أم لا.

وحجة هذا الكتاب أن الصهيونية مبنية على سلسلة من الأساطير. مجموعة من المفاهيم الزائفة التى تقوض مزاعمها عن الديانة اليهودية والتاريخ اليهودى، كما أن أساسها الجوهرى ـ كاستجابة لنزعة معاداة السامية الأوروبية ـ فضلاً عن تبريرها لوضعها السياسى العدوانى، أمر بالغ الخطورة فى أرض فلسطين.

والفصول التالية تتعامل بشكل مباشر مع الأساطير، بالرد على مزاعم محددة اصطنعتها الأيديولوچيات الصهيونية، أو على المعتقدات واسعة الانتشار التى صارت جزءًا من الفولكلور الصهيونى.

أعظم صناع الأساطير الصهيونية، داڤيد بن جوريون، ساعد دون قصد على تشكيل أول وآخر فصول الكتاب. هذا المُعد للحقائق كان هو أول رئيس وزراء إسرائيلى وأكثر زعماء الصهيونية نجاحًا فى القرن العشرين. بن جوريون تباهى مرة بأن الأسطورة يمكن أن تصبح حقيقة إذا آمن الناس بها بما يكفى من القوة.

وقد استخدم بحذق ومهارة، خفة اليد الثقافية، لكى يتلاعب ـ باحتراف ـ بقصص الكتاب المقدس، بحيث تناسب المزاعم السياسية للصهيونية على الأرض الفلسطينية.

ويفند الفصل الأول استخدام بن جوريون الفاحش جدًا للأساطير الدينية، وبالتحديد أسطورة أن الكتاب المقدس «فوضه أمر» إعلان دولة يهودية فى فلسطين. ويوضح الفصل، مع تطور الطرح المقدم فيه، كيف أن علم الآثار الإسرائيلية الآن من مصداقية المزاعم الصهيونية حول (إسرائيل القديمة)، والفصل العاشر يوضح كيف أن بن جوريون دمر أية احتمالات لمصالحة عربية ـ إسرائيلية. إذ إنه خرب المحادثات السرية مع ناصر رئيس مصر، الذى كان أهم زعيم قومى عربى فى القرن العشرين، والذى كان يسعى إلى سلام مشرف مع إسرائيل. ذلك أن «تنظيم الضباط الأحرار»، بما فيه ناصر، الذى قاد ثورة مصر الوطنية فى سنة ١٩٥٢م، كان قد قطع شوطًا كبيرًا لبناء جسور مع الجماعة اليهودية فى البلاد.

ويشير سلوك بن جوريون هنا إلى أهم استنتاج فى الكتاب، بأن الصهيونية هى مصدر العداوة العربية ـ اليهودية، وتعتمد أى احتمالات للمصالحة العربية ـ اليهودية على إزاحتها.

وتتطلب فكرة المصالحة «العربية ـ اليهودية» سؤالاً حيويًا حول تجاهل تاريخ آخر أسبق زمنًا. إذ إن الثورة الإسلامية، قبل ما يزيد على ألف وثلاثمائة سنة، بشرت بما أسماه العديد من الباحثين «التعايش» بين العرب واليهود مما أنتج ثقافة عربية ـ يهودية أو حتى ثقافة يهودية ـ إسلامية، وليس مجرد ثقافة يهودية باللغة العربية (الفصل الرابع، والفصل العاشر).

بل إنه من المحتمل أن طبقة التجار اليهودية فائقة الحركة ـ التى قيض لها أن تقود الجامعات اليهودية فى أوروبا العصور الوسطى وساعدت على وجود فترات آمنة من الازدهار والاستقرار لليهود فى تاريخ أوروبا القديم (الفصل الثالث) ـ كانت جذورها، جزئية على الأقل، تضرب فى هذه الفترة الإسلامية اليهودية الباكرة. ومن المؤكد أن هذه كانت وجهة نظر أبرز باحثى القرن العشرين فى التاريخ العربى اليهودى، البروفيسور د. جويتين (الفصل الرابع والفصل العاشر).

ولكن ما علاقة هذا بتفنيد أساطير الصهيونية؟ هناك إجابتان مختلفتان تمامًا. أولاهما: أن الصهيونية تتجاهل المكون العربى الإسلامى فى التاريخ اليهودى. وثانيتهما: أن الصهيونية لا ترى سوى «المعاناة» اليهودية خلال ما يسمى «النفى»، لا سيما فى أوروبا.

وأسطورة «النفى» لها سخافتها المخصوصة، وقد سيستها الصهيونية عندما جلبتها من قصص الكتاب المقدس. وهى تشير إلى ما يقرب من ألفى سنة من التاريخ اليهودى من هدم المعبد فى القدس على أيدى الجيش الرومانى سنة ٧٠م، حتى مولد إسرائيل فى سنة ١٩٤٨م. ويعتبر اليهود الذين كانوا يعيشون خارج فلسطين فى هذه الفترة منفيين عاشوا فى «المنفى». لا يبدو التعايش العربى ـ اليهودى نوعًا من «النفى» بأى حال. والحقيقةأن اليهود كانوا قد استوطنوا منطقة الهلال الخصيب (التى حولت بريطانيا جزءًا كبيرًا منها إلى العراق فى بدايات القرن العشرين)، لا سيما المنطقة المحيطة بمدينة بابل القديمة، قبل عدة قرون مما يسمى النفى. وإلى هذا اليوم يتحدث اليهود الإيرانيون والعراقيون بفخر عن تاريخ متواصل على مدى ٢٥٠٠ سنة. والتلمود البابلى، الذى بقى المرشد الروحى لكل اليهود المتدينين، ومنهم اليهود الأوروبيون، هو فى حد ذاته

شهادة على أهمية هذه الجماعات اليهودية. وبعد الثورة الإسلامية، حلت بغداد محل بابل باعتبارها المركز الروحى لكل الجماعات اليهودية، بما فى ذلك الجماعات اليهودية الصغيرة جدًا، فى ذلك الوقت، بأوروبا.

ويتحدى الفصلان الثانى والثالث أساطير «النفى» و«المعاناة»، ففى الفصل الثانى نرى كيف أنه فى وقت سقوط المعبد بالقدس، منذ حوالى ٢٠٠٠ سنة، كان معظم اليهود يعيشون خارج فلسطين، مبعثرين فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وما وراءها، ولم تكن بابل استثناء فى ذلك.

أما الفصل الثالث فيواجه بروز طبقة التجار اليهودية، فى أوروبا العصور الوسطى إلى أسطورة «المعاناة». والآن لا يوجد شك فى أن الدور الاقتصادى اليهودى فى أوروبا العصور الوسطى كان يمكن أن يفاقم، بل ويحفز نزعة عداء السامية التقليدية فى المسيحية. ولكن الصهيونية تحكى جانبًا واحدًا فقط من القصة. إذ كان الحكام المسيحيون على استعداد دائم لحماية رعاياهم اليهود الذين كانوا ناشطين اقتصاديًا وفى غاية النجاح أحيانًا. وعلى أية حال، فإن الصهيونية تتخلص من المناقشة الجادة، دعك من التحليل، للدور الاقتصادى اليهودى فى التاريخ الأوروبى الباكر.

هذا محض نفاق، إذ كان على الصهيونية أن تواجه الصورة غير المتوافقة زمنيًا «للتاجر والمالى اليهودى» التى عاشت إلى ما بعد حركة التنوير الأوروبية بنفس الروح التى عمرت بها الحركات اليهودية الأخرى الأهم كثيرًا والتى خرجت من رحم التنوير والأندماجيين والاشتراكيين. و«شيلوك» الشخصية اليهودية المثيرة للجدل التى ابتدعها شكسبير، ينتمى بجذوره إلى هذا التاريخ اليهودى الأوروبى الباكر. لا يمكنك أن تتجاهل «شيلوك»، إنما عليك أن تشرحه. ويحاول الفصل الثالث أن يقدم مثل هذا الشرح.

وقد طرحت حركة التنوير وعدًا بالاندماج. إذا إنها كانت إعلانًا عن حقوق جديدة للمواطنة والحريات فى أوروبا وأمريكا، ليعيش اليهود جنبًا إلى جنب مع المسيحيين. وتضمن هذا التحرر من الدور الاقتصادى الضيق الذى كانت أوروبا المسيحية قبل العصر الحديث قد حاولت أن تفرضه على اليهود. وبدأت الثورة الأمريكية سنة

١٧٧٦م والثورة الفرنسية ١٧٨٩م فى تحويل الوعد إلى حقيقة سياسة عملية. وللأسف، فإن الثورة فى الإمبراطورية الروسية حيث كانت تعيش غالبية اليهود ـ والتى بلغت ذروتها فى بواكير القرن العشرين ـ قد أخفقت فى الوفاء بذلك الوعد. وكشف الفصل السادس الخلفية التاريخية، ويبرهن على أن الجذور الحقيقية للصهيونية تكمن هناك.

أما الفصول: الخامس والسابع والتاسع فتكشف الأثر المدمر العميق للصهيونية على العرب وأرضهم فى فلسطين، حسبما ظهر أيضًا فى العالم الحديث. ويفند الفصل الخامس النصف الأول من الأسطورة الصهيونية الشهيرة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، ويفند الفصل الساس النصف الثانى منها. ويحاول الفصل الخامس أن يعيد الحياة للجماعات الفلاحية العربية فى الأرض الخاوية بفلسطين قبل وصول الصهاينة فى القرن التاسع عشر. وبقدر نجاح الفصل فى هذا، فإن الفضل ينبغى أن ينسب للمؤرخ اللامع ـ ولكن حظه من الشهرة قليل ـ «بشارة دومانى»، الذى أقتبس فى هذا الفصل أبحاثه دون خجل.

ويكشف الفصل السابع والتاسع أسطورة أن مزاعم الصهيونية بشأن الاستقلال الوطنى اليهودى والتحرير، يمكن مقارنتها بنضال الشعوب المقهورة فى أماكن أخرى بالعالم فى القرن العشرين. فالحقيقة أن الصهيونية مثلت حركة فى الاتجاه المضاد. وبعد الحرب العالمية الأولى، ساعدت على تقوية الحكم الاستعمارى البريطانى على العالم العربى. وبعد الحرب العالمية الثانية، لم تكن الدولة اليهودية المختلقة حديثًا سوى رصيد استراتيجى لمخططات الولايات المتحدة الإمبريالية الجديدة للمنطقة العربية. وفى كل من الحالين، كانت الصهيونية معتمدة على القوى الإمبريالية الغربية تمامًا.

هذه الفصول تلقى بعض الضوء المدهش على المجادلات المألوفة. فمثلاً يكشف الفصل السابع كيف أن إعلان بلفور سنة ١٩١٧م، الذى مهد الطريق أمام الدولة اليهودية، له جزور أعمق مما يدرك معظم الناس. ذلك أن آرثر بلفور، الوزير البريطانى المحافظ الذى ارتبط الإعلان باسمه، كانت تحركه معتقدات معادية للسامية. ولم تنتقل عدوى معاداة السامية المنسوبة إليه إلى بقية وزارة داڤيد لويد الحربية فقط؛ وإنما ذعن إليها بسعادة الزعماء الصهاينة من أمثال حاييم وايزمان.

ويكشف هذا عن جانب من الصهيونية مزعج تمامًا، وعادة مخفيًا، وهو جانب نقابله أيضًا فى الفصل السادس مع تيودور هرتزل، مؤسس الصهيونية، كان ذلك استعدادًا لدعم الآراء الأوروبية المعادية للسامية عن اليهود. ونقولها صريحة: إن الزعماء الصهاينة كانوا على استعداد تام لأن يقولوا للسياسيين الأوروبيين الذين يتصرفون من منطلق رد الفعل «فى بلادكم يهود أكثر مما ينبغى؟ ساعدونا على التخلص منهم فى فلسطين».

كذلك يناقش الفصل السابع زعمًا غير عادى، بأن الدافع الأساسى وراء إعلان بلفور كان اعتقاد وزارة الحرب البريطانية، بأن القوة اليهودية فى أمريكا وروسيا سوف تساعد على تقوية مركز الحلفاء فى الحرب ضد ألمانيا.

ونعوم تشومسكى هو الملهم الرئيسى وراء الفصل التاسع، ومثلما لاحظ إدوارد سعيد، أعظم مفكر فلسطينى، فإن كتاب Fateful Triangle لتشومسكى، ربما يكون أكثر الكتب طموحًا من حيث محاولة تناول الصراع بين الصهيونية والفلسطينيين من زاوية الدور الأمريكى المركزى فى هذا الصراع.. ويمكن قراءته على أنه حرب طويلة بين الحقيقة وسلسلة من الأساطير ـ إسرائيل الديمقراطية، استخدام إسرائيل الطاهر للسلاح، الاحتلال الرحيم، لا عنصرية ضد العرب فى إسرائيل.. هذا العمل يستحيل مجاراته، وإذا كان هذا الفصل لا يفعل شيئًا سوى إقناع الناس بقراءة تشومسكى، فإنه يكون قد حقق غرضه.

وعلى أية حال، فإن الفصل يحاول أن يكون على قدر من الأصالة. فتحت حكم الرئيس چورچ دبليو. بوش، بدت العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل مقلوبة أحيانًا بشكل غريب، وبعيدًا عن أن إسرائيل تخدم مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، ألم تبدأ الولايات المتحدة فى خدمة مصالح إسرائيل؟

ويغلب على الظن أن اليهود الأمريكيين من المحافظين الجدد، فى قلب إدارة بوش، كانوا مهندسى هذا الانقلاب فى السياسة. ومن المؤكد أن لبعض هؤلاء المحافظين الجدد جذورًا تمتد إلى حزب الليكود المتعصب فى إسرائيل (الحزب الحاكم وقت عمل هذا الكتاب فى صيف ٢٠٠٣م). وثمة عامل معقد يتمثل فى أن هذه الزمرة القبيحة قد

بعثت الحياة مجدداً فى اتهام قديم بمعاداة السامية تستخدمه المؤامرة الصهيونية. ويحاول الفصل التاسع بعناية أن يفند الاتهام، وينظر إلى أى مدى انصاعت إدارة بوش للمحافظين الجدد.

ويتحدى الفصل الثامن أسطورة أن الهولوكوست أو ما يسمى مذابح النازية ضد اليهود يقدم حالة لا يمكن الرد عليها فى الدفاع عن الصهيونية. فبينما لا يوجد شك فى أن الهولوكوست(*) يشكل إحدى أخطر الجرائم فى التاريخ الإنسانى فإن ذلك لا يبرر اختلاق دولة يهودية قائمة على أساس الإقصاء العنيف لشعب آخر من أرضه، وهو ما حدث بالضبط سنة ١٩٤٨م. لقد كانت تلك لحظة فاصلة بالنسبة لكل من الصهيونية والفلسطينيين الذين يذكرونها باعتبارها نكبة. وبالإضافة إلى أن ما حدث هو أبعد ما يكون عن كونه رد فعل مشروع للهولوكوست، فإن الهولوكوست أذا ما تذكرناه بشكل صحيح هو نفسه يدين الأفعال التى تسحب الأساس الأخلاقى من أولئك الذين يستغلونه على هذا النحو. ويجادل الفصل الثامن من خلال استخدام كتابات وتحليلات حول الهولوكوست، بأن الرفض الإيديولوجى الأعمى لفهم الحقائق السياسية للشعب الفلسطينى، له قدرة فى حد ذاته على جعل الصهيونية حركة راديكالية، مما يغريها بتصرفات عنيفة أشد من ذى قبل ضد الشعب الفلسطينى.

ونحن نعرف من تاريخها القصير والدموى كيف يمكن أن يتحول هذا العنف إلى تطهير عرقى. ولدينا دلائل تاريخية صادمة من قرية دير ياسين الفلسطينية سنة ١٩٤٨م وفى معسكرات اللاجئين الفلسطينيين فى صابرا وشاتيلا ببيروت سنة ١٩٨٢م. وقد صك كاتب إسرائيلى راديكالى مصطلحًا جديداً لهذه العملية هو Politicide، بمعنى إيجاد نهاية للوجود «الفلسطينى» (kimmerling 2003:3) التى ترمز إليها سياسات الزعيم الإسرائيلى آرييل شارون.

(*) استغلتها إسرائيل سياسيًا وإعلاميًا وماليًا، ودفع ثمن ذلك الفلسطينيون. وهناك خلاف كبير على حجمها وتفاصيلها، مع إغفال بقية ضحايا النازية والحرب العالمية الثانية فى مقابل التركيز عليها، وتفرض كثير من الحكومات الأوروبية عقوبات قانونية ضد من يحاول «التشكيك» فى هذه الأسطورة. وقد تعرض باحثون فى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة لمضايقات عنيفة نتيجة نشر أبحاثهم عنها. وآخرهم المؤرخ الإنجليزى إيرفنج الذى ينفى تمامًا وقوعها، حيث تم اعتقاله فى د يسمبر عام ٢٠٠٥م ـ المترجم.

وتتسم الدولة اليهودية بعجز فطرى عن الاعتراف بمسئوليتها عن النكبة، وفى الحقيقة فإنّ ظل اللاجئ الفلسطينى قدر سيطاردها إلى الأبد، ماديّا، وسياسيّا وأخلاقيّا ونفسيّا، ثم عسكريّا فى نهاية الأمر. إذ إن حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة التى كان يقودها ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية، تضرب بجذورها العميقة فى معسكرات اللاجئين المنتشرة فى معظم أنحاء العالم العربى. وعلى الرغم من أن الأمر استغرق عشرين سنة لكى تظهر منظمة التحرير الفلسطينية، فإنها كانت بالنسبة للدولة اليهودية الوجه الآخر السالب. لقد كان للمنظمة الحق السياسى والأخلاقى فى أن تطالب بأعتراف على أسس عادلة واعتراف بطلبها العادل للعودة لأرض فلسطين. ويجسد الانتحارى الذى يفجر نفسه بالقنابل فى مطلع القرن الحادى والعشرين إخفاق الدولة اليهودية فى فهم هذا. ففى بعض الأحيان يكون الانتحارى هو اللاجئ الذى لم يسمح له بالعودة إلى وطنه.

وعلى امتداد هذا الكتاب، استخدمت عبارة معاداة السامية لوصف كراهية اليهود. وأنا أدرك تمامًا أن هناك جدلاً حول هذا المفهوم (بل حتى فى كيفية تهجئته) ولكن هذه حذلقة لا أظن أنها تخصنا هنا.

إذا كان هذا الكتاب يقترح الحاجة الملحة لتاريخ يهودى بديل، سواء القديم أو الحديث، بدلاً من التاريخ الذى أقحمه الصهاينة علينا فى القرن العشرين، فإن هذا يكون إضافة جيدة. ولكننى لا أزعم أننى كتبت مثل هذا التاريخ. إذ إن اهتمامى الأساسى كان منصبًا فقط على هدم التاريخ الأسطورى الذى اصطنعته الصهيونية.

***